

## صفحات من لبنان

بقلم العميد الركن المتقاعد ادونيس نعمة

## الشاعر الفرنسي لامارتين في لبنان

لم يعرف لبنان على مر الحقب والدهور عصرا كثرت فيه الاحداث والازمات، وتتابع في الثورات والانقلابات، وتبدلت فيه الاحكام والحكام، وتغيرت فيه الشرائع والدساتير مع تبدل جذري في عقلية الناس كالقرن التاسع عشر. فما برح اللبنانيون الى يومنا يتحسسون مؤثرات هذا القرن ومفاعيله على اوضاعهم الحياتية، شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب التي عرفت توارخها امثال هذه الانتفاضات التطورية والفترات الانتقالية المؤدية الى الثبات والاستقرار.

وقد تميز هذا القرن بالنسبة الى لبنان بانفتاحه على العالم القريب بفضل ما طار له من صيت اثر هذه الاحداث، ولاسيما في البلدان المجاورة لحوض البحر المتوسط. فلقد اجتذب آنذاك المستشرقين والزوار والسياح والشعراء والفلاسفة والسياسيين الاجانب وحملهم على

ارتداد ربوعه باحثين مدققين، يعينهم على ذلك ما بدأوا يلاقونه من سهولة الاسفار بحرا وبراً بفضل التقدم الحضاري الذي أخذ يذر قرنه في تلك الايام. فهناك عشرات منهم من جنسيات عديدة: بريطانيين وفرنسيين وايطاليين وغمساويين والمانيين وبولونيين اموا بلادنا لأغراض مختلفة، فأقاموا فيها ردا من الزمن وعادوا الى بلدانهم ليكتبوا عن مشاهداتهم فيها ابحاثا ومؤلفات هي اليوم من اهم المراجع التي تعيننا على اعادة تدوين تاريخنا الوطني الكبير على اسس حضارية مدروسة.

ولعل اكثر زوارنا شهرة وابعدهم صيتا وابقاهم ذكرى ورسوخا في ربوعنا واعماق قلوبنا الشاعر الفرنسي العاطفي الفونس دو لامارتين، صاحب المؤلفات العديدة والقيمة وفي طليعتها "رحلة الى الشرق".

كانت رحلة هذا الشاعر الى بلادنا - كما نستطيع ان ننظر اليها اليوم - سياسية اكثر منها سياحية، هدفها استطلاع احوال البلاد بعد ان اجتاحتها جيوش ابراهيم باشا ابن محمد علي وتغلبت على عساكر السلطان العثماني.

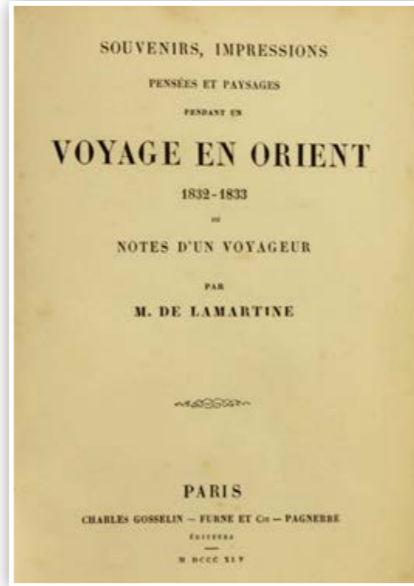
ولد لامارتين سنة 1790 في ماكون (فرنسا) ونشأ شاعرا وكاتباً وسياسياً. وضع قبل مجيئه الى الشرق "غرازيليا"، "التأملات"، "التأملات الجديدة" و"الايقاع". وفي سنة 1831 ترشح للنيابة فأخفق. وقام برحلة الى الشرق في 10 تموز، مبحرا من مرسيليا علي ظهر الباخرة ألسست (Alceste) ومحيطاً رحلته بأبهة وبذخ، إذ اصطحب معه طبيبه وبعض اصدقائه وستة من الخدم وزوجته ماري وابنته جوليا. وفي 6 ايلول سنة 1832 بلغ بيروت واقام في دار كانت تقع في مكان ما قرب شارع سعيد عقل (اليوم)، ويقال ان هذه الدار لا تزال على حالها تقريبا. وفور وصوله الى هذه المدينة، ومراعاة للاصول المتبعة آنذاك، كتب الى ابراهيم باشا ابن محمد علي، حاكم البلاد، يعلمه بوصوله ويستأذنه بالتجول في هذه الارحاء لغاية السياحة. فأجابه ابراهيم باشا بالكتاب التالي، وقد عثر على صورته الصديق المرحوم الاب انطونيوس شبلي في مخطوط وقع في يده صدفة للمرحوم جهجاه الدحداح، فأثبتته في كتابه الاخير "الأثار المطوية"، وهذا نص هذا الكتاب: "من ابراهيم باشا الى الامير الفونسو دي لامارتينو فخر الملة المسيحية، ومعتمد الطائفة العيسوية، محبنا العزيز الكونتي دي لامارتينو حفظه الله. بعد اهداء زواهر المحبة، واداء جواهر المودة،



الشاعر الفرنسي الفونس دو لامارتين.

والسؤال عن عزيز خاطركم، نبدي لمحبتكم انه بأيمن ان حظينا بورود مكتوب مودتكم، وفهمنا ما ذكرتموه عن قدومكم الى بيروت بقصد السياحة بهذه الاطراف، وافدتم عن زيادة السرور الذي شملكم لقدومنا واستيلائنا على هذه المحلات، وطلبتكم مرسوم بالتوصية (بالتوصية) عليكم الى الحكام. جميع ذلك صار معلوم، وقد حصل لنا مزيد السرور من قدومكم بالسلامة، وتضاعف لورود مكتوبكم هذا حيث انه اكبر دليل على صدق المودة. فأما المرسوم مطلوبكم قد تحرر بكل تأكيد وهو واصل بطيه. وبأي وجه كان، من دون شك، لا يحصل لجنايبكم من احد من خدامنا سوى الرعاية والاکرام، حيث يعلموا زيادة ميلنا الى كل من كان يخص الدولة الفرنسية حفظاً لشروط المحبة. اقتضى افادتكم بذلك. وفيما نرغب عدم حسم تحريراتكم والله يحفظكم.

في 27 رجب 1248 (1832).  
صدر المرسوم المطاع الى كافة الحكام والمتمسلمين والمحافظين في ايالة صيدا والشام وحلب بوجه العموم:



غلاف كتاب لامارتين: "رحلة الى الشرق 1832 - 1833"، طبع في باريس عام 1945.

"ان فخر الملة المسيحية محبنا السنيور الكونتي دي لامارتينو (لامارتين)، احد امراء دولة فرنسا، قصده السياحة مع اعياله واولاده بهذه



في تذكارة زيارة لامارتين الى قصر بيت الدين سنة 1832: الكولونيل بوفان وعقيلته مع رئيس الجمهورية شارل دباس وعقيلته، ويبدو ناظم عكاري وجورج حيمري والامير فائق شهاب وحشد من كبار الموظفين.

الاطراف. فيلزم لطرف كل منكم يكون له الحماية والصيانة ومزيد الاكرام من كل وجه، ولا احد يعارضه مبروره. واذا اقتضى له دواب لركوبه من محل الى محل آخر فيكون مساعداً لتمام مطلوبه. ثم اذا كان متوجه في طريق غير امينة يلزم اصحابه بعساكر يوصلوه الى محل مقصود آمناً مطمئناً. اعتمده غاية الاعتماد".

امير الحج، والي جده، وسر عسكر مصر". وما ان تسلم لامارتين هذه الرخصة حتى اخذ يتجول مع حاشية مؤلفة من خمسة وعشرين فارساً مدة خمسة واربعين يوماً في ربوعنا وما يجاورها من الاقطار. وبلغ بشري. ويقول بعض المطلعين انه لم يتسن له بلوغ الارز لتراكم الثلوج في الطريق، فأرسل من حفر له اسمه على احد اشجاره، وهذه الكتابة باقية آثارها الى يومنا هذا برغم هبوب عاصفة قوية كسرت بعضاً من هذه الشجرة.

وفي خلال إقامته هنا فقد ابنته جوليا. وانتخب غيايباً نائباً في البرلمان الفرنسي. ونقطط من كتابه "رحلة الى الشرق" وصفاً مترجماً لزيارته سيد البلاد الامير بشير الثاني الكبير في قصر بيت الدين.

قال: "قصدا دير القمر (بيت الدين) حيث الامير بشير حاكم جبل لبنان، وبعد ان انتهينا من الغداء ارسل الامير البنا يقول انه في انتظارنا. فدخلنا باحة فسيحة تزينها فسقيات، وصرنا في رواق قامت على جانبيه اعمدة عالية مرتكزة الى الارض تحمل سقف السرايا. وكان يملأ نصف القاعة كتبة يلبسون الغنايب الطويلة وفي زنار كل منهم دواة مذهبة يشكونها فيه مثل خنجر، وبعض ابناء البلاد لابسون ثيابا فاخرة وحاملون اسلحة مصقولة. وكان نفر من العبيد يرقبون اوامر سيدهم، وهنا وهناك بعض من الضباط المصريين. وكان النصف الثاني من القاعة اعلى قليلا من النصف الاول، وعلى دائره ديوان من المخمل الاحمر الفاخر. وكان الامير متربعا في زاوية الديوان، وهو شيخ جميل الطلعة، ذو عينين براقيتين، تلوح عليه سيماء الراحة والنشاط، ذو لحية وخطها الشيب مسترسلة ◀

## صفحات من لبنان

◀ على صدره، وكان مرتدياً غنبازا ابيض يشده زنار من الكشمير، وهو يحمل فيه خنجرا كبيرا ظهر مقبضه من بين ثنايا الغنبازا، تزيّنه قبضة مرصعة بالحجارة الكريمة وهي بحجم البرتقالة. فابتدرناه بالسلام على الطريقة المتبعة في البلاد بأن رفعنا يدينا الى جبهتنا ثم وضعناها على جهة القلب، فرد علينا السلام بتأدب وابتسامه، وأشار علينا بأن نقرب ونجلس بجانبه على الديوان، وكان ثمة مترجم راعح بيننا وبينه. فبدأت الحديث مظهرا ارتياحي الى زيارة تلك البلاد التي كان يحكمها بحزم وكفاءة عظيمين. ومما قلته له ان وجودي هناك هو ابلغ مدح لحسن ادارته، فان ما يجده المسافر من أمن في الطريق، وغنى في الزراعة ونظام وسلام في المدن، لأكبر شاهد على قدرة الامير وحنكته. فشكرني، واخذ يطرح علي اسئلة في ما خصّ اوروبا وخصوصا ما كان له علاقة بالسياسة، فأثبت لي اهتمام الامير الزائد بتلك المسألة، ودلني على معارفه وفهمه للامور بلا حد مما قد لا تجد مثله بين امراء الشرق. ثم قدّموا لنا القهوة والغليون مرارا، وطال بنا الحديث ساعة من الزمن، وقد اعجبني ما وجدته في ذلك الشيخ من الحكمة والفهم والهيبة والجلال".

وهنا نبذة من ملحمة لامارتين "سقوط ملاك" المستمدة روحها من الهام الشرق وجمال لبنان. قال لامارتين على لسان بطل الرواية الشيخ: "بقينا ثلاثة ايام نسير في طريق وعرة، فنجتاز المجاري المنحدرة من اعالي الجبال، وفر على خيم العرب المنتشرة هنا وهناك كأنها صخور بيضاء تلمع خلال الاغصان، وعندما يجيء الظلام نحل ضيوفا مكرمين عند قبائل الفلاحين، فالشرق يكرم الضيف ايا كان. الى ان سمعنا اجراسا تدوي في الابعاد الشاسعة، فادركنا اننا اصبحنا على مقربة من جبال الارز. وما زلنا نسير حتى تراءت لنا اغصان الارز، تلك الاشجار التي غرسها الله بيده وعمل منها تاجا لملك العواصف نفسه. ولما بلغناها احسنا برهبة عظيمة تستولي على كليتنا، واخذنا نحدق في اللجج العميقة الغضة! فقال الشيخ لرفيقه بصوت خافت:



امام شجرة لامارتين في غابة الارز، صورة مأخوذة سنة 1937.

اسجد يا بُني.. ولنحمد الله على نعم اسبغها علينا، فلقد هدانا الى هيكله المقدس وقادنا بيده الى احضان نعيمه. ها نحن قد وصلنا الى حيث نقصد، فهذه الاغصان الجبارة هي آثار عدن، وهذه الاماكن الطاهرة هي بقايا تلك الجنة. انظر جيدا الى هذا الارز، فهو روح الهية تشعر وتفكر وتدرك، غذاؤها الصخور وشرابها النيران. لقد ابصرت الطوفان يدفع امواج البحار الى قببها الخالدة العظيمة دون ان تتعطف لديه او تضطرب امامه".

وبعد عودة لامارتين الى فرنسا وضع هذه المؤلفات: "سقوط ملاك"، "تأملات شعرية" و "تاريخ الجيرونديين"، واكمل "جوسلين" وغيرها. وسنة 1848 ترشح لرئاسة الجمهورية فأخفق. وبقي حتى آخر حياته يذكر رحلته الى الشرق، ويدافع عن حقوق اللبنانيين تحت قبة البرلمان الفرنسي كلما سحت له المناسبة بذلك. وتوفي في "باسي" في 28 شباط 1869 في وضع مالي صعب، ويرقد جثمانه اليوم في سان بوان.

في سنة 1932 قدمت الى بيروت بعثة من فرنسا للاحتفال بمرور مئة سنة على زيارة شاعر "التأملات" الى لبنان، فانضم اليها هنا رجال الصحافة والقلم من وطنيين وفرنسيين. واقيم الاحتفال في قصر بيت الدين، وتجلت فيه روح الصداقة الفرنسية اللبنانية بأجلى معانيها. وكان في الحضور الاميرال قائد البحرية الفرنسية، والكولونيل بوفان رئيس بعثة تنظيم الدرك ومعاونته القومندان بيكار. وقد استرعى انظار الحضور رجل مسن بلغ ارذل العمر قيل انه من عائلة لبوس في بيت الدين، وقد اوقفته البلدية عند مدخل قاعة العمود في القصر ليروي للناس ما شاهده في صباه من الاحتفالات الرائعة التي نظمها الامير بشير تكريما لضيفه الكبير. وسيبقى لامارتين خالدا في نفوس اللبنانيين كرمز للشعر والادب والصداقة والوطنية، وقد أطلقت الحكومة اللبنانية اسمه على احد الشوارع في بيروت.



# Safety, Security... Satisfaction

+961 1 702 000

www.metropolitansecurity.com.lb

DEFENSE DISTRIBUTOR

SECURITY & MILITARY TRAINING

LOGISTICS & OPERATIONS

METROPOLITAN DEFENSE & SECURITY

**MDS**

METROPOLITAN DEFENSE AND SECURITY SOLUTIONS

BENELLI DEFENSE

S&T Motiv

CZ

CSG CZECHOSLOVAK GROUP

B&T

+961 1 702 000

www.mds-me.com

info@mds-me.com